

تمهيد:

تعد منهجية البحث المختارة بمثابة الركيزة الأساسية في الدراسات الجامعية والأكاديمية المتخصصة، لاعتبارها معيار قياس نجاعة نتائج البحث، فالعملية البحثية تسعى أساساً لفهم العالم المتغير والمعقد، هذا الفهم قد يكون هدفاً في حد ذاته أو مقدمة لتوقع التغيرات المقبلة، وفق مسار منهجي ينطلق من إثارة التساؤلات البحثية وطرح الفروض وتطويرها واختبار صحتها، إلى السير في طريق بناء النماذج والنظريات التفسيرية.

منهجية البحث العلمي على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للأبحاث العلمية، والسبب في ذلك هو حاجة أي بحث علمي للدقة والتنظيم، فالبحث العلمي ليس كغيره من المقالات الصحفية أو الموضوعات الإنشائية أو الأخبار النصية، فالأمر ينطوي عليه الكثير من النتائج المرتبطة بحياة البشر أنفسهم، لذا شرع العلماء والخبراء العلميون نحو إيجاد منهجية للبحث العلمي يسير على دربها الباحثون.

المحور الأول: أهمية المنهجية في الدراسات الاجتماعية:

دار جدل كبير في بداية القرن التاسع عشر حول منهجية البحث أو الطريقة المتبعة لإجراء الأبحاث والدراسات الاجتماعية، بغرض إيجاد طرق فعالة لدراسة هذا النوع من العلوم التي تتميز بطبيعة وسلوكيات منفصلة عن العلوم الطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء، فكانت الضرورة للتحرك من فكرة الأرقام النمطية في وقت سيطر فيه المنهجان الاستنباطي والاستقرائي على الأبحاث. بعد القطيعة المعرفية مع الأساليب التي كانت تقوم على الاستدلال (وهو ما كان يشار إليه بالقياس الأرسطوي)، والقطيعة مع النسق الديني الذي هيمن على الحركة العلمية في الدول الأوروبية، كانت الحاجة ملحة لاتجاهات منهجية تتماشى والأساليب التي وصل إليها العلماء المسلمون في العصور الوسطى خاصة المنهج الاستردادي، الاستنباطي والتجريبي، ليصبح المنهج في العصر الحديث قائم بين:

- أطروحة الاستقراء: التي تعتبر أن منطق بداية أي علم ونشاط معرفي هو الملاحظة، أي الانطلاق مما هو مشاهد ومن الخبرة الحسية المستمدة من الواقع، بهدف استنتاج افتراضات عامة، ويعتبر فرانسيس بيكون (Francis Bacon)¹ رائد لهذا الاتجاه. لكن التركيز على الملاحظة حسب هذا الطرح يحول دون إمكانية تنظيمها وفهمها وتفسيرها، وعليه ملاحظة الظواهر لا تضمن بالضرورة تطور المعرفة العلمية.

¹ - فرانسيس بيكون فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على "الملاحظة والتجريب"، من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطوي الذي يعتمد على القياس، لمزيد من التفاصيل انظر: حبيب الشاروني، فلسفة فرانسيس بيكون. دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 2005.

-اطروحة الاستنباط: التي تنطلق من اعتبار أن العلاقات الممكنة بين الظواهر ما هي إلا بناءات فكرية يمكن التحقق منها في الواقع لاحقاً، وبالتالي أي تخمين يمكن أن يصبح نشاطاً عقلياً، وهو ما طرحه رينيه ديكارت (René Descartes) ، حيث اعتبر في مذهبه أن الشك هو الطريق إلى اليقين، وقد اقتضى هذا منه أن يضع سؤال الشك حتى في ما توصل إليه هو نفسه، ليهتدي إلى صحة ما وصل إليه، مقررًا أن خلاف ذلك لا يفتح له السبيل إلى اكتشاف الحقيقة.

شكك ديكارت في المعرفة التجريبية التي تأتي عن طريق الحواس باعتبارها معرفة متغيرة غير ثابتة، بحكم تغير الحواس وما يطرأ عليها من ظروف طبيعية تؤثر في قرارها، أي في المعرفة التي تنبني عليها.

إن التعمق في هذين الأطروحتين بغرض معرفة مصدر المعرفة العلمية، يؤكد أن العلم يتضمن لحظات للاستنباط وأخرى للاستقراء، ولا يمكن القول بأسبوعية الأولى على الثانية، ذلك أنه عندما نكون بصدد الاستقراء تتدخل عمليات الاستنباط الناتجة عن استدلالات سابقة والعكس صحيح.

ويمكن تلخيص أهداف منهجية البحث العلمي في العلوم الاجتماعية على سبيل الذكر لا الحصر، فيما يلي:

-تقديم أحكام جديدة لحادثة أو ظاهرة معينة لم يتم البحث فيها مسبقاً، كإضافات علمية.

-التواصلية من خلال استكمال الجهود السابقة في دراسة الظواهر، فيما يعرف بالبناء والتراكم المعرفي.

في العلوم السياسية نحتاج لمعرفة لماذا يقبل الشعب على المشاركة السياسية في مرحلة من المراحل، ولماذا يحجم في مراحل وظروف أخرى، وغيرها من التساؤلات التي تحتاج إلى وسائل لإزالة تعقيداتها وكشف اللبس عنها، هذه الوسائل هي المناهج والاقترابات والمفاهيم والأدوات، كدليل ارشادي للباحث لإدراك الظواهر السياسية المختلفة.

ظهرت المنهجية السياسية كحقل فرعي متميز في العلوم السياسية، حيث أصبح علماء المنهج السياسي يدرسون التقنيات الإحصائية الموجودة ويطورون طرقاً جديدة لاستخدام الإحصائيات لتقدير وتحديد الآثار السياسية وفهم البيانات السياسية، ويشبه دورهم في الانضباط دور علماء الاقتصاد القياسي في الاقتصاد، والذين يتمثل هدفهم الرئيسي في فهم الطرق الأكثر كفاءة ودقة لاختبار الفرضيات وتحليل البيانات.

ويمكن تعريف المنهجية السياسية أنها مجال فرعي من العلوم السياسية التي تدرس الأساليب الكمية والنوعية المستخدمة في دراسة الظواهر السياسية، حيث تجمع بين الأساليب الكمية كالإحصاء والرياضيات والنظرية الرسمية، وأصبحت المنهجية السياسية تستخدم حتى في البحوث الميدانية.

المعرفة والبحث العلمي: إن مسألة تحديد المفاهيم والمصطلحات الرئيسية المستعملة في الموضوع هي خطوة إجرائية مهمة تساعد الطالب منذ البداية على أن يعرف ماذا يقصد بهذا المفهوم أو ذلك، ومن هذا المنطلق نحاول تحديد المفاهيم الأولية لمصطلحات المنهجية الضرورية.

1-المعرفة والبحث العلمي: ليس المهم أن نعرف، بل كيف نتوصل الى المعرفة وموقفنا منها؟

1-ما هي المعرفة؟ المعرفة (Knowledge) عبارة عن رصيد ضخم من تراكم الادراكات والتصورات والمعاني والآراء والحقائق التي تمكن الانسان من جمعها في محاولات المتكررة لفهم الأشياء والظواهر المحيطة به، بواسطة حواسه وفكره، ولا يملك بالضرورة إثباتاً على صحتها.

وهي بهذا المعنى لا تقتصر على ظواهر معينة دون أخرى، وإنما تتضمن كل ما يحيط بالإنسان وما يرتبط به، فمن المعارف ما يتصل بتكوين الإنسان العضوي والنفسي، ومنها ما يتصل بالبيئة الطبيعية، ومنها ما يتعلق بعالم ما وراء الطبيعة ومعتقدات الإنسان حوله.

يقدم البروفيسور سوتيريوس سارانثاكوس (Sotirios Sarantakos) بجامعة (Chares Sturt) باستراليا، في كتابه البحث الاجتماعي (Social Research)، تعريفاً مقتضباً للمعرفة من خلال مصادرها انطلاقاً من:

-الفهم الشائع لدى عامة الأفراد.

-الحدس: أنا اعرف ذلك

-القناعات التي ترتكز على الاعتقاد الشخصي.

-ما جرى التحقق منه عبر الزمن.

-التقاليد والعرف وما استقرت عليه ممارسات الافراد عبر الأجيال.

-الخبرات والتجارب الشخصية ومدى تقبل الأشخاص لها.

-مصدر المعلومة السلطوي، باعتبار صحيحة إذا كانت صادرة عن خبير أو أستاذ مثلاً.

-قوى فوق الطبيعة كالألهة والوحي والقوى الغيبية.

-العقل والمنطق، باعتبار أن العقل يدرك الحقيقة والمعلومة بطريقة مباشرة.

-الطرق العلمية في تحصيل المعرفة عن طريق التجريب.

وعليه، يمكن القول ان ما يميز المعرفة البشرية أنها شبكة مفهومية تتضمن كل الأنماط الإدراكية للمجالات الروحية، الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، الثقافية وغيرها، وهي ذات طبيعة تراكمية، تمكن الإنسان من التعامل بكفاءة مع الواقع المحيط به من خلال تصويره موضوعياً.

ويري عالم الأحياء هكسلي (Huxley) أن المعرفة العلمية هي ذلك النشاط الذي نكتسب من خلاله أكبر قدر من معرفتنا بالظواهر، ونمارس بواسطته الضبط والتحكم في العالم الطبيعي، ويؤكد كارل بيرسون (K. Pearson) في كتابه "قواعد العلم" (The grammar of science) أن كل ميدان معرفي يعد علماء، ما دام يستخدم قواعد المنهج العلمي بطريقة منظمة.

نقول علم الشيء أي عرفه، كما أن لفظ Science مشتق من الأصل اللاتيني Scire بمعنى To know أي يعرف، هذا الترادف لا يعني تساويهما في العمومية والخصائص، بل هناك تمايز بينهما، فالعلم ليس أية معرفة، وإنما هو معرفة من نوع خاص تلتزم بشروط منطقية ومنهجية.

فالمعرفة بوجه عام مجموعة الآراء والتصورات والمعتقدات والمعاني التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر المحيطة به، وتنقسم إلى ثلاثة أنماط أساسية: معرفة علمية، معرفة غير علمية ومعرفة لا علمية، حيث:

-يقصد بالمعرفة العلمية: مجموع الأفكار والتصورات والمعاني التي يتم اكتسابها بطريقة منظمة باستخدام المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجريب، تهدف هذه المعرفة إلى فهم الظواهر فهماً موضوعياً دقيقاً، وتمثل العلوم المختلفة الطبيعية والاجتماعية نموذجاً لهذا النمط من المعرفة.

-المعرفة غير العلمية فهي في الحقيقة لا تتناقض مع المعرفة العلمية، بل تتكامل معها، حيث انها معرفة منظمة ومنطقية، لكن لا يتم استخدام المنهج العلمي بخطواته في تحصيلها، وإنما تكتسب بطرق اخرى حسب الموضوع أو الظاهرة المحددة.

-المعرفة اللاعلمية: ويقصد بها تلك الأفكار والتصورات المناقضة للعقل والمنطق السليم، فهي معرفة على النقيض تماما من المعرفة المنظمة، فالإنسان لا يكتسبها بالمنهج العلمي، كما أنه لا يفسر الظواهر تفسيراً منطقياً، وإنما يفسرها تفسيراً يفتقر إلى الرشد والعقلانية.

وتعد ما يمكن أن نطلق عليه المعرفة الميتافيزيقية نموذجاً للمعرفة اللاعلمية، ويقصد بها تفسير الإنسان للظواهر الطبيعية والاجتماعية المحيطة به بقوي فوق طبيعته غير منظورة، ويعني ذلك إهمال الأسباب الموضوعية الظاهرة والمرئية، التي يمكن ضبطها وفهمها، وتنمو هذه المعرفة عندما يعجز الإنسان عن فهم الظواهر المحيطة به فهماً عقلياً.

خصائص المعرفة العلمية:

1-الموضوعية: نقيضها الذاتية وهي تعني الغياب الكامل و المطلق لذات الباحث (مزاجه، ثقافته، إيديولوجيته وأحكامه المسبقة و استنتاجاته) في عمله العلمي، سواء فيما تتعلق ببناء الموضوع أو عند بناء الفروض العلمية، أو عند إقامة التجارب العلمية، وذلك حتى يصل الباحث إلى حكم علمي دقيق يمكن تعميمه.

وفي هذا الصدد يقول الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار (Gaston Bachelard) "العلم يقرب الناس بعضهم من بعض والأهواء والمصالح تفرقهم، لأنه العلم يستخدم الأدلة العقلية والبراهين المنطقية المستقلة عن العوامل الشخصية والذاتية".

2-الوضعية: وهي نقيض الغيبية والميتافيزيقا، وتعني الوضعية الاشتغال بالمواضيع والمسائل والقضايا التي يمكن أن نصل إليها مباشرة والتي هي موجودة إما كواقع عيني أو كواقع ذهني.

3-التعليل: ويعني البحث في العلل والأسباب، بمعنى على الباحث أن يهتدي إلى الأسباب الحقيقية والعلل الفاعلة لظواهره التي يدرس، فهو غير مطالب بوصف الظاهرة بقدر ما هو مطالب بالكشف عن العلاقات السببية الموجودة بين الظواهر.

4-الواقعية: وهي التي تقوم على استقراء الظواهر والخبرات التي نعيشها واقعياً، لا التي تدخل في نطاق الخيال والتصورات.

5-الدقة: تعتبر من أهم الدعائم التي يقوم عليها الفكر العلمي، حيث تتميز المعرفة العلمية بالدقة سواء في المفاهيم، أو دقة الفروض والتجارب والاستنتاجات والتعميمات.

6-التعميم: دقة النتائج والنظريات العلمية هي ما تمكن البحث العلمي من القيام بعملية التعميم والتي تعني في مدلولها المنطقي جعل الكل يحمل حكم الجزء أو بعض الأجزاء.

7-النسبية: دقة النتائج والنظريات العلمية لا يعني التعامل معها على أنها حقائق مطلقة لا يحق البحث فيها من جديد، بل ما يؤمن به العقل العلمي هو أن النظرية العلمية صادقة ودقيقة فقط في بعض جوانبها، وبالتالي فهي دوماً في حاجة إلى إضافة وتعديل والمقصود هو أن العلم في حركة دائمة وحيوية مستمرة.

8-التعبير الكمي: لم تكتسب المعرفة العلمية طابعها العلمي إلا حينما اعتمدت على التكميم، فيقال أن تقدم العلم هو تقدم القياس، حيث الثابت في تاريخ الفكر العلمي والنظريات العلمية أنها لا تتعامل مع الوقائع على أنها كيفيات، بل يتم تحويلها إلى كميات حتى نتمكن من دراستها و توفيق في التعبير عنها.